سَلْ صادحاتِ الوُرْقِ عن وَلَهي بمَنْ … ضَمَّتْ تِهامةُ فهي عينُ الخابرِ
وإذا نطقتُ فأنتَ لفظُ مقالتي … وإذا سكتُّ فأنتَ سِرُّ الخاطِرِ(١)

يوسف بن محمد بن مُقَلَّد التَّنوخي(٢)

رحل إلى بغداد، وعاد إلى دمشق مريضاً بعِلَّة الاستسقاء، فمات بها في صفر، ودفن بقاسيون، ومن شِعْره: [من الهزج]

فؤادي منكَ مقروحُ … وقلبي منكَ مجروحُ
وقد زاد الذي ألقى … فدمعُ العينِ مَسْفُوحُ
أَغِثْني يا مُنى قَلْبي … فما الهِجْرانُ ممدوحُ
فأنتَ القَلْبُ واللُّبّ … و[أنتَ](٣) الرَّاحُ والرُّوح
أنا إنْ عَنَّفَ الواشي … ففي قلبي التَّبارِيحُ

السنة التَّاسعة والخمسون وخمس مئة

فيها قال أبو الفرج بنُ الجَوْزي ـ رحمه الله ـ في «المنتظم»: فيها وَرَدَ البشيرُ إلى المستنجد بفَتْح مِصر، فقال حاجب الوزير ابن تركان(٤) قصيدة منها: [من الطويل]

لعل حُداةَ العِيْس أن يترفَّقوا … لتشفي عليلاً بالمدامع مُدْنَفُ
لِيَهْنكَ يا مولى الأنام بشارةٌ … بها سيفُ دين الله بالحقِّ مُرْهَفُ
ضَرَبْتَ بها هام الأعادي بهمَّةٍ … تقاصَرَ عنها السَّمْهَرِيُّ المُثَقَّفُ
بَعَثْتَ إلى شَرْقِ البلادِ وغَرْبِها … بعوثاً من الآراء تحيي وتُتْلِفُ

---

(١) الأبيات في «الخريدة»: ٤/ ٦٩٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) له ترجمة في «الوافي بالوفيات»: ٢٩/ ٣١٥-٣١٧، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ١/ ٣٦٦-٣٦٧، و«مختصر تاريخ دمشق»: ٢٨/ ٩١ (اختصرته سكينة الشهابي على نهج ابن منظور).
وهو والد عبد السلام بن يوسف الصوفي، المتوفى سنة(٥٨١هـ)، وانظر خبر قدوم عبد السلام إلى دمشق سنة (٥٧١هـ) في كتاب «الروضتين»: ٢/ ٤٢٠-٤٢١.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في (ع) و (ح)، وقد زدتها لاستقامة الوزن.

(٤) هو شمس المعالي أبو الفضائل محمد بن الحسين بن تركان، كان حاجب الوزير ابن هبيرة، وتوفي سنة (٥٦١هـ)، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج٢/ ج٤/ ٥٠٦-٥٠٨. و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ٢٧٤.

فقامت مقامَ السَّيْفِ والسَّيْفُ قاطِرٌ ... ونابَتْ منابَ الرُّمح والرُّمْحُ يرعُفُ
فقدتَ لها جَيْشاً من الرَّوعِ هائلاً ... إلى كلِّ قلب من عُداتك يَزْحفُ
لِيَهْنِكَ يا مولاي فتحٌ تتابعت ... إليكَ به خُوصُ الرَّكائب توكَفُ
أخذتَ به مِصراً وقد حال دونها ... من الشِّرك ناسٌ في لحى الكُفْر تقذف
فعادَتْ بحمد الله باسْمِ إمامنا ... تَتِيْه على كل البلاد وتَشْرُفُ
ولا غَرْوَ إنْ ذَلَّتْ ليوسفَ مِصرُه ... وكانت إلى عَلْيائِهِ تتشوَّفُ
تملَّكَها مِنْ قَبْضة الكُفْر يوسفٌ ... وخلَّصَها من عُصبة الرِّفْضِ يوسفُ
فشابَهَهُ خَلْقاً وخُلْقاً وعِفَّةً ... وكلٌّ عن الرحمن في الأرض يَخْلُفُ
كشفتَ بها عن آلِ هاشم سُبَّةً ... وعاراً أبى إلا بسَيْفك يُكْشَفُ[1]

قال المصنف رحمهُ الله: وهذا وهمٌ من ابنِ تركان، فإن تواريخ الشَّاميين والمِصريين مُطْبِقَةٌ على أن مِصر لم تملك في هذه السنة، بل في سنة أربع وستين وخمس مئة، ولم يخطب للمستنجد فيها، وإنما أُقيمت الخُطْبة فيها في أيام المستضيء، وكان المستنجد قد مات، وقد ذكرنا أنَّ شاور قَدِمَ على نور الدين في السَّنة الماضية، وأقام عنده إلى هذه السنة، فجهَّز نورُ الدين العساكر مع أسد الدِّين شيركوه في العشرين من جُمادى الأُولى، وكان صلاحُ الدين مع عَمِّه أسد الدين، فلمَّا وصلوا إلى القاهرة، خَرَجَ إليهم أبو الأشبال الضرغام ابن سوار، فحاربهم أياماً، فلما كان في بعضها التقوا على بابِ القاهرة، فحمل ضرغام في أوائل النَّاس، فَطُعِنَ فَقُتِلَ، واستقام أمر شاور، وكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر.

وكان شاور سفَّاكاً للدِّماء، ولما استولى على القاهرة، ظهرت منه أمارات الغَدْر، فأشار صلاح الدين على أسد الدين بالتأخُّر إلى بِلْبيس. وما كان يقطع أمراً دونه، ثم بعث أسدُ الدِّين إلى شاور يطلب منه أرزاق الجند، فاعتذر وتعلل عليه، فأقطع أسد الدين الغربية، وكتب إلى نور الدين يخبره بما جرى.

وَدَسَّ شاور إلى الفرنج رسولاً يدعوهم إلى مصر، وبذل لهم الأموال، فاجتمعوا من السَّاحل، وساروا من الدَّاروم متفقين مع شاور على قتال أسد الدين، وحصروه في

(١) انظر «المنتظم»: ١٠/٢٠٨-٢٠٩، وقال: ثم تكامل الأمر بعد سبع سنين على ما نذكره في خلافة المستضيء.

obeikandl.com

بِلْبيس شهرين وقاتلوه، فصالحهم أسدُ الدين على مال، وكان حصارهم له من أول رمضان إلى ذي القَعدة، وجرت بينهم حروبٌ ووقائع، وبلغهم أن نور الدِّين على قَصدِ بلادهم، فرجعوا، وعاد أسد الدين إلى دمشق، وأقام شاور بالقاهرة يظلم ويقتل، ويصادر النَّاس، ولا رأي للعاضد معه، وأقام أسد الدِّين بدمشق إلى سنة اثنتين وستين، ودخل ديار مِصر، وهي نوبة البابين، وعاد إلى دمشق، ثم دخل إلى مصر سنة أربع وستين، فاستولى عليها، وقتل شاور، ولم يخطب بها لبني العباس إلا عند موت العاضد سنة سبعٍ وستين في خلافة المستضيئ لما نذكر، إنْ شاء الله تعالى.

ذِكْرُ بداية أَمْر بني أيوب

كان نجم الدِّين أيوب بن شاذي بن مروان، وأخوه أسد الدِّين شيركوه، نجم الدِّين الأكبر، أصلهم من دُوِيْن بلدة صغيرة في العجم، وقيل هو من الأكراد الرَّوَاديَّة، قدما العراق، وخدما مجاهد الدِّين بِهْرُوز الخادم شِحْنة بغداد، فرأى من نجم الدِّين رأياً وعقلاً وحُسْنَ سيرة، فولَّاه دُزْدَاراً لتكريت، وكانت له، أعطاه إياها السُّلْطان مسعود، فأقام بها نجم الدِّين ومعه أخوه شيركوه، فلمَّا انهزم أتابك زَنْكي من المسترشد في سنة ستٍّ وعشرين وخمس مئة، ووصل إلى تكريت، خدمه أيوب، وأقام له المعابر، فعبر دِجْلة من هناك، وخَدَمَ من تبعه من أصحابه، فرأى زَنْكي له ذلك.

وأقاما بتكريت مُدَّة، ثم فارقاها، وسببُه أنَّ نجم الدِّين كان يرمي يوماً بالنُّشَّاب، فوقعت نُشابة في مملوك لبهروز، فقتله من غير قَصد، واستحيا من بهروز، فخرجا إلى المَوْصل، وقيل: إنَّ بهروز أخرجهما. وقيل غير ذلك، وقصدا أتابك زَنْكي، فأحسن إليهما، وأقطعهما إقطاعات كثيرة، وصارا من جُمْلة أجناده.

فلما فتح زَنْكي بَعْلَبَكَّ ولَّى نجم الدين دُزْداراً في قلعتها، فلما قُتِلَ زَنْكي على قلعة جَعبر، حَصَرَ نجمَ الدِّين صاحبُ دمشق، وضايقه، فكتب إلى نور الدِّين وسيف الدِّين غازي يطلبُ منهما نجدةً، فاشتغلا عنه بملك جديد، واشتدَّ الحصار على بعلبك، فخاف نجمُ الدِّين من فَتْحها عَنْوةً، أو تسليم أهلها، فصالح معين الدِّين أُنَر على مالٍ وإقطاع، وانتقل وأخوه إلى دمشق، وصارا من أكبر أُمرائها.

ثم اتَّصلَ أسدُ الدِّين بنور الدِّين، فرأى منه نجابةً وشجاعة، فأعطاه حِمْص والرَّحْبة، وجعله مقدَّم عساكره، فلما صَرَفَ نورُ الدِّين هِمَّتَه إلى دمشق أمر أسدَ الدين أَنْ يكاتبَ أخاه نجمَ الدِّين على المساعدة على فتحها، وقال: هذا واجب، فإنَّ مجير الدِّين قد أعطى الفرنج بانياس، وربما سَلَّم إليهم دمشق. فأجابه نجمُ الدِّين إلى ذلك، وطلبا من نور الدِّين إقطاعاً وأملاكاً، فأعطاهما، وحَلَفَ لهما ووفى بيمينه، وصارا عنده في أعلى المنازل، وخصوصاً نجم الدين، فإنَّ جميع الأُمراء كانوا إذا دخلوا على نور الدِّين لا يقعد واحد حتى يأمره نور الدِّين بالقعود، إلا نجم الدِّين فإنَّه كان إذا دَخَلَ قعد من غير أن يأمره نور الدين. فلما كان في هذه السنة، وعَزَمَ نور الدِّين على إنفاذ العساكر إلى مِصر، لم يَرَ لها مثل أسد الدين، فبعثَ به مع شاور كما ذكرناه.

وفيها حارب أمير أميران أخاه نور الدِّين [فكسره نور الدين، وسنذكره في ترجمة أمير أميران في السنة الآتية.

وفيها فتحت حارم في شهر رمضان، وكان السبب فيه أَنَّ نور الدين][1] لما أصابه بالبقيعة ما أصابه، بعث إلى أخيه قُطْب الدِّين بالمَوْصل وفخر الدين قرا رسلان بالحِصن، ونجم الدِّين بميَّافارِقين وغيرهم يطلبُ النَّجْدة، فأما [أخوه][1] قطب الدِّين، فإنَّه جمع العساكر، وسار مُجدًّا، وعلى مقدّمته زين الدِّين علي كُوجك، وأما فخر الدِّين قرارسلان، فقال له أصحابه: على أيِّ شيء عَزَمْتَ؟ فقال: على القعود: فإنَّ نورَ الدين قد أثَّر فيه الصَّوم والصَّلاة، وهو يُلْقي نفسه والنَّاس معه في المهالك. فوافقوه، فلما كان من الغد نادى في عسكره بالتجهز للغَزَاة، فقيل له في ذلك، فقال: إنَّ نور الدِّين قد كاتَبَ زُهَّاد بلادي المنقطعين عن الدُّنيا، وذَكَرَ لهم ما جرى على المُسْلمين من الفرنج، وطلب منهم الدُّعاء، وطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الجهاد، وقد قَعَدَ كلُّ واحدٍ وحوله جماعة يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون، ويدعون له وعليّ، فإن تأخرتُ خَرَجَ أهلُ بلادي عن طاعتي، ثُمَّ سار بنفسه.

وأما صاحب مارِدِين فبعثَ بالعساكر، وكان له عُذْرٌ يمنعه عن المسير بنفسه.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

obeikandi.com

ولما اجتمعت العساكر على حلب سُرَّ نور الدين بقدومها، وسار إلى حارم، فنازلها، وبلغ الفرنج، فحشدوا وجاؤوا في ثلاثين ألفاً، وفيهم البرنس صاحِبُ أنطاكية والقُومص [صاحب طرابُلُس وابن جوسلين والدوك، وهو رئيس القوم][١]، وكان فيهم من الرَّجَّالة ما لا يُحصى، ولما تراءى الجمعان صَعِدَ نور الدِّين على تلٍّ عال، فشاهد من الفرنج ما أذهله وهاله، فنزل من التل، وانفرد عن العساكر، ونزل عن فرسه، وصلَّى ركعتين، ومرَّغ وجهه على التراب، وبكى، وقال: يا سيدي، هذا الجيش جيشك، والدين دينك، ومن محمود في البين، افعل ما يليق بك. وحملتِ الفرنجُ على الميمنة، وفيها عسكر حلب، فاندفعوا بين أيديهم ليبعدوا عن الرَّاجل، وتبعهم الفرنج، فعطفَ نورُ الدِّين على الرَّجَّالة، فحصدهم بالسَّيْف، ورجعت الفرنج، فلم يروا من الرَّجَّالة أحداً، فانخلعت قلوبُهم، وأحاط بهم المسلمون، فذلّوا، وخضعوا، وعمل فيهم السَّيف، فلم يبقَ منهم إلا من نجا به فرسه، وأَسَرَ نورُ الدِّين من سَمَّيْنا من ملوكهم، وستَّة آلافٍ من أكنادهم، وغَنِمَ ما كان معهم من الأموال والخيل والسِّلاح والخيام، وغير ذلك، وفَتَحَ حِصنَ حارم في حادي عشرين رمضان يوم الجمعة، وعاد إلى حلب بالأسارى والغنائم، وامتلأت حلب منهم، فبيع الأسير بدينار، وفرَّقهم نور الدين على العساكر، وأعطى أخاه وصاحِبَ الحِصن الأموال العظيمة، والتُّحف الكثيرة، وعادوا إلى بلادهم، ثم فاداهم نور الدين.

وكان قد استفتى الفُقَهاء، فاختلفوا، فقال قوم: يقتل الجميع. وقال آخرون: يفادي بهم. فمال نورُ الدِّين إلى الفدية، فأخذ منهم ست مئة ألف دينار معجلة، وخيلاً، وسلاحاً وغير ذلك، فكان نورُ الدِّين يحلف بالله أَنَّ جميع ما بناه من المدارس والربط [والمارستانات][١] وغيرها من هذه المفاداة، وجميع ما وقفها[٢] منها، وليس فيها من بيتِ المال دِرْهمٌ واحد.

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) في (م) و (ش): الصدقات.

وفيها توفي

الحسن بن محمد(١)

ابن الحسن، أبو المعالي الوَرْكاني، الفقيه، الشافعي، وَوَرْكان من نواحي قاشان.

عاش نيفاً وثمانين سنة، يقرئ فنون العلوم بأصبهان، ومن شعره: [من الرمل]

يا أحبائي بجرعاءِ الحِمى ... بكُمُ منكمْ لقلبي المُسْتَجارْ
ليتَ شِعْري ما الذي زَهَّدكُمْ ... في وِصالي أدلالٌ أم نِفارْ
أَمْ لأن كنتُمْ بدوراً طُلَّعاً ... في دُجى اللَّيل وللبدرِ سِرارْ

وكتب إليه أبو المعالي محمد بن مسعود القَسَّام فُتْيا سنة ستٍّ وأربعين وخمس مئة بأصبهان: [من البسيط]

يا مَنْ تساهَمَ فيه الفَضْلُ والشَّرفُ ... ومن به نفراتُ العِزِّ تأتلفُ
قد حَلَّ في مَدْرَجِ العَلْياءِ مرتبةً ... مطامحُ الشُّهْبِ عن غاياتها تَقِفُ
تشاجَرَ النَّاسُ في تحديد عِشْقهُمُ ... شتى المذاهب فالآراءُ تختلفُ
فاكشِفْ حقيقته واسْتَجْلِ غامضه ... يا من به شُبَهُ الآراءِ تنكشِفُ(٢)

فأجابه على البديهة:

حدُّ الهوى أنَّه يا سائلي شَغَفٌ ... أَدْنى نكايته في أهله التَّلَفُ
نار تأجَّجُ في الأحشاء جاحِمُها ... دماءُ عينٍ تراه دائماً يَكِفُ
وقد يُجَنُّ الفتى منه لشِدَّته ... فكم أُناسٍ به في قيده رسفوا
يُشِبُّ نيرانَه فِكرٌ ويُطفِئُهُ ... وَطْءٌ كذا قاله القوم الأُلى سلفوا
فهذا ما رمتَ من عندي حقيقتَه ... فإنَّه واضح كالشَّمْسِ مُنْكَشِفُ
بديهة لم أنقِّحْ لفظها فأتَتْ ... كالدُّرِّ ينشَقُّ عن لألائها الصَّدَفُ(٣)

---

(١) له ترجمة في «الأنساب»: ١٢/ ٢٥٠، و«التحبير»: ١/ ٢٠٥-٢٠٦، و«خريدة القصر» قسم شعراء أصبهان ١/ ١٨٩-١٩٦، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٢٣١-٢٣٢، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٦٦-٦٧، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٦٥، و«شذرات الذهب»: ٤/ ١٨٧ .

(٢) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٩٤ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) الأبيات في «الخريدة»: ١/ ١٩٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

obeikandl.com

محمد بن علي بن أبي منصور(١)

أبو جعفر، الوزير جمال الدين الأَصبهاني.

وزير أتابك زَنْكي، وسيف الدِّين غازي، وقُطْب الدِّين مودود، وكان الحاكم على الدَّولة، و[كان](٢) بينه وبين زين الدِّين علي كُوجك مصافاة، وعهود ومواثيق، وكانت المَوْصل في أيامه ملجأً لكلِّ ملهوف، ومفزعاً لكل مكروب، ولم يكن في زمانه من يضاهيه، ولا يقاربه في الجُود والنَّوال، والإحسان والإفضال، وكان كثيرَ الصِّلات، غزير البر والصَّدقات، بنى مسجد الخَيْف، وغَرِمَ عليه أموالاً كثيرة، وجدَّد الحجر إلى جانب الكعبة، وزخرف البيت بالذَّهب، وبنى أبواب الحَرَم وشيَّدها، ورَفَع أعتابها صيانةً للحرم، وبنى المسجد الذي على جبل عَرَفَة، والدَّرج الذي يَطْلُعُ فيها إليه، وكان النَّاس يعانون في صعودهم شِدَّة، وأجرى الماءَ إلى عرفات، وعمل البرك والمصانع، وأجرى الماء في قنوات، وكان يعطي أهل مكة كلَّ سنة مالاً عظيماً ليجروا الماء إلى عرفات، وبنى على مدينة رسول الله ﷺ سُوراً، وكانت الأَعراب تنهبُها وتغارُ عليها، فكان الخطيب يقول على المنبر: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك محمد ﷺ، وهو محمد بن علي الأَصبهاني.

وكانت صدقاتُه وصِلاتُه في المشرق والمغرب، يبعث بها إلى خُرَاسان، والعراق والبصرة، والكُوفة، وبغداد والشَّام، ومِصر، والحجاز، واليمن، فيعمُّ [الفقهاء و](٢) العلماء والزُّهَّاد وأرباب البيوت، وغيرهم، وما خيَّبَ رجاء مَنْ قَصَده، وكان له في كلِّ يوم - خارجاً عن أرباب الرَّواتب - مئة دينار يتصدَّق بها على باب بيته، وبنى الجسور والقناطر والرُّبُط بالمَوْصِل، والجسر الذي عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والرَّصاص، وأوثقه بالحديد بين البنيان، وبنى الرُّبُط بالموصل وسِنْجار ونَصِيبين، وكان إذا قلَّ ما بيده باع بُسُط داره وثيابَه، وتصدَّق بها، وكان يبعث إلى عمر الملا

(١) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٠٩، و«مختصر تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣-١٩٥، و«الكامل»: ١١/ ٣٠٦-٣١٠، «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٤٣-١٤٧، و«الروضتين»: ١/ ٤٢٠-٤٣٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٤٩-٣٥٠، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

بالأموال، فيتصدَّق بها، فإذا نَفِدَ ما عنده خلع ثيابه وعِمامته، وبَعَثَ بها إلى عمر ليتصدَّق بثمنها، [فيبكي عمر.

وكان قد][(١)] وقع بالمَوْصل قحطٌ، فكان يقول: هذه أيَّام المواساة. ولهذا الخَرْجِ العظيم كان يُنْسب إلى عمل الكيمياء، وحُوشي من ذلك.

[ذكر وفاته][(١)]:

ولما سارت الرُّكْبان بجوده، وعَمَّ معروفُه أهلَ الدُّنيا حَسَدَه أقوامٌ، فكذَّبوا عليه عند قُطْب الدين، وقالوا: إنَّه يأخذُ أموالك فيتصدَّق بها. وما كان قُطْبُ الدِّين يقدر على قبضه لما كان بينه وبين زين الدِّين من المصافاة، فوضع مَنْ أغرى بينهما، فتغيَّر عليه زين الدِّين، فقبض عليه قُطْب الدين، واعتقله في قلعة المَوْصل، فقال ابنُ المعلِّم [الشَّاعر هذه الأبيات][(١)]: [من البسيط]

إنْ يَعْزِلُوكَ لمعروفٍ شَمَخْتَ به ... على ذوي الأرضِ ذات العَرْضِ والطُّولِ
فأنتَ يا واحدَ الدُّنيا وسيِّدَها ... بذلك الجُودِ فيها غيرَ مَعْزُولِ

ثم ندم زين الدِّين على موافقة قُطْب الدِّين على قَبْضه، لأنَّ خواص قُطْب الدين كانت أيديهم مقبوضة عن التصرُّف، فلما قُبِضَ جمالُ الدِّين انبسطوا في الأمر والنَّهْي على خلاف غَرَضِ زين الدين، وأقام في الحَبْسِ سنة، ثُمَّ توفي.

وقال[(٢)] أبو القاسم الصُّوفي، وكان صاحبه: قال لي جمال الدِّين: كنتُ أخشى أن أنقل من الدَّسْت إلى القبر، فلو جاء الموتُ الآن ما كَرِهْتُه. ثم مَرِضَ، فقال [لي][(١)]: يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدّار فَعَرِّفْني. فقلتُ في نفسي: قد اختلط الرَّجل. فلما كان من الغد إذْ سَقَطَ طائرٌ أبيض لم أَرَ مثله، فَعَرَّفْتُه، فاسْتَبْشَرَ، وقال: جاء الحقُّ. ثم قال: بيني وبين أسد الدين شيركوه عهد، مَنْ مات منا قَبْلَ صاحبه حَمَلَه إلى المدينة ـ وكان أسد الدين وجمال الدِّين قد بنيا رباطين بالمدينة وعملا فيهما تُربتين ـ فاذهَبْ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).
(٢) في (م) و (ش): وحكى.

إلى أسد الدين، فذكَّرْه. وأَقْبَلَ على ذِكْر الله تعالى والتشهُّد حتى مات، وطار الطَّائر، ودُفِنَ في تابوت بالمَوْصِل، وذلك في رمضان. ومضى أبو القاسم إلى أسد الدِّين، فأخبره، فقال: صَدَق. وأعطاه مالاً صالحاً يحمله به إلى مكة والمدينة، وأن يحجَّ معه جماعةٌ من الصُّوفية، ويُقرأ بين يدي تابوته عند النُّزول وعند الرَّحيل، وأن يُنادى بالصَّلاة عليه في كلِّ بلد. فخرجوا بتابوته على هذه الهيئة، فقدموا به بغداد، ونزلوا به في الشُّونيزية، ولم يبق ببغداد أحدٌ إلا وخرج إليه خصوصاً مَنْ كان له إليه إحسان، فصلُّوا عليه وبكوا وترحَّموا، ثُمَّ خرجوا به إلى الحِلَّة والكوفة، وزاوية المشهدين، فقام بعضُ العلويين بالكُوفة على تلٍّ عالٍ، فلما مَرُّوا بجنازته رَفَعَ صوتَه، وقال: [من الطويل]

سَرَى نعشُه فوق الرِّقابِ وطالما سرى بِرُّه في العالمينَ ونائِلُهْ
يمرُّ على الوادي فتُثْني رمالُهُ عليه وبالنَّادي فتبكي أرامِلُهْ

فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم ساروا به مع الحاجّ، فلمَّا وصلوا [به][1] إلى وادي المحرم، ألقوا على تابوته شقة كأنَّه مُحْرِم، ثم أَتَوْا به عرفات، وخرج أهل مكة باكين، وصَعِدوا به إلى الجبل، ونزلوا به إلى مِنى، واشتروا له جمالاً، ونحروها عنه، ودخلوا به مكَّة، فطافوا به حول البيت، واشتغل النَّاس به عن البيت من كَثْرة البكاء والصُّراخ، وخرج النِّساء المجاورات اللائي كان إليهن بِرُّه بين يدي تابوته يبكين ويصرخن، وكان يوماً عظيماً، وساروا به إلى المدينة، فخرج أهلُها، وفعلوا به كما فعل أهل مكَّة، ودخلوا به إلى الرَّوْضة، فصلوا عليه، وحملوه إلى رِباطه، فدفنوه فيه، وبين رباطه وبين مسجد النَّبي ﷺ أذرع عرض الطَّريق، وكان فصيحاً. ولما حُبس قال: [من الكامل]

أينَ اليمينُ وأينَ ما عاهدْتني ما كان أسرعَ في الهوى ما خُنْتني
وتركتني حيرانَ صَبًّا مُدْنَفاً أرعى النُّجومَ وأنتَ ترقد هاهنا

(١) ما بين حاصرتين من (م) و (ش).

فـلأرفـعـنَّ إلـى إلـهـيَ قِـصَّـةً   إنـسـان مـظـلـوم وأنـتَ ظـلـمـتـنـي
ولأدعـونَّ عـلـيـك فـي غَـسَـقِ الـدُّجى   فـعـسـاك تـبـلـى بـالـذي أبـلـيـتـنـي

ولم يحمل إلى مكة مَيْتٌ قبله سوى الحُرَّة ملكة عدن، وابن رُزِّيك أخو الصَّالح طلائع، والخادم أومشت صاحب عُمان.

أبو الفَرَج ابن الدَّهَّان الواسِطي(١)

ويلقب شمس الرُّؤساء، شاعِرٌ فصيح، ومن شعره: [من الخفيف]

عـاد عـيـد الـهـوى بـقـلـبـي فـأبـدى   زفـراتٍ تُـعْـيـي الـحـلـيـمَ الـجَـلْـدا
مـا يـريـد الـهـوى كـأنَّ لـه عـنـ   ـدَ فـؤادي الـمـتـبـولِ ثـاراً وحِـقْـدا
يـا طـلـيـقَ الـفـؤاد حـاجـة مـأسـو   رٍ أبـى مـن وَثَـاقـه أنْ يُـفَـدَّى
أيـنَ أيـامُـنـا بـسَـلْـعٍ أعـاد الـ   ـلـهُ أيـامـنـا بـسَـلْـعٍ ورَدَّا
يـالـهـا نـفـحـةً بـذي الـبـان يَـزْدا   دُ فـؤادي لـبَـرْدِهـا الـدَّهْـرَ وَقْـدا
ولـيـالٍ بـجـوٍّ ضـارجَ صَـيَّـرْ   نَ لـحُـزْنـي أيـامـيَ الـبِـيْـضَ رُبْـدا(٢)
لا عـدا الـغـيـثُ مـن تِـهـامـةَ رَبْـعـاً   هـامَ قـلـبـي بـه غـرامـاً وَوَجْـدا
أتـمـنَّـى نَـجْـداً ومـن أيـن تُـعْـطـيـ   ـنـي الـلَّـيـالـي بـأرضِ نـعـمـانَ نـجـدا
حَـبَّـذا رفـقـتـي بـوادي الأثـيـلا   تِ وأظـعـانـهـم مـع الـفَـجْـرِ تُـحْـدى
يـا لُـوَاتـي دَيْـنَ الـغـرامِ أمـا آ   ن لِـدَيْـنـي عـلـيـكُـمُ أنْ يُـؤدَّى
يـا ظـبـاء الـصَّـريـم فـيـكـنَّ ظـبـيٌ   صـاد قـلـبـي يـوم الـغـمـيـمِ وصَـدَّا
لـم أكـن عـالـمـاً بـوَجْـرة يـومـاً   أنَّ غـزلانـهـا تـصـيـد الأُسْـدا
أَخْـلَـقَـتْ جِـدَّتـي صـروفُ الـلَّـيـالـي   وأَرَتْـنـي هَـزْلَ الـمُـلِـمَّـاتِ جِـدَّا
مـلأتـنـي يـدُ الـخُـطـوب كُـلُـومـاً   أنْ رأتْـنـي لـصَـرْفـهـا مُـسْـتَـعِـدَّا

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مجلد ١/ج٤/ ٣٦٥-٣٦٨، والأبيات فيه.
(٢) ربد: سود، مختلط سوادها بكدرة، «اللسان» (ربد).

obeikandi.com